حول قمر الناصر :

فى فن الاخراج المسرحى

للاســـــتاذ زكي طليمات

فى العدد ٧٥٠ من هذه المجلة الغراء تفضل الأستاذ (ط) بكلمة طيبة عن تمثيل الفرقة المصرية رواية (الناصر) للشاعر الكبير عزيز أباظة باشا ، وخصني فيها بالتفاتة رعاية ، ثم تكرم مخلصاً بالفات نظرى إلى ناحية من نواحى الإخراج الذى أجريته فى المسرحية ، وهى ناحية جديرة بالكشف وفى التعقيب عليها تبيان لمنحى من مناحى الإخراج المسرحى فى مرحلته الحديثة .

يعجب الأستاذ كيف يحدث جرح ، فوق المسرح طبعاً ، من غير أراقة دماء ، فقد طعنت إحدى شخصيات الرواية أخرى بخنجر ، ومع هذا فانه لم ير أثر للدماء ولا تمزق فى الثياب .

وهذا عجب مشروع له ركاز من الحق إذا اعتبرنا فن التمثيل من حيث الأداء ومن حيث الإخراج ، نسخا للحياة ونقلا عن الواقع فى أدق تفاصيله ، أو بالأحرى إذا اعتبرنا المسرح لوحة فوتوغرافية من الواقع

هذا الاعتبار الذى يأخذ به نقاد المسرح المصرى له أصل فى تاريخ تطور الفكرة عن فنون المسرح ، وأقصد بالفكرة وجهة النظر التى يأخذ بها الجمهور أدباؤه وفنانوه ، تبعا للمزاج العام الذى تعمل على تكوينه الاتجاهات الصريحة فى الأدب والفنون ، وقد برزت فى أتم طابع وجهة النظر فى أن يكون فن التمثيل مماثلا كل المماثلة للحياة الواقعية ، فى أواسط القرن الماضى ، وانتشرت فى أواخره وغيرت كل وجهات النظر الأخرى ، على يد المخرج الكبير (أندرية أنطوان) فى فرنسا (استانسلفسكى) فى روسيا ، وكانت هذه الحركة بمثابة رد فعل لما كانت عليه فنون المسرح إذ ذاك من ابتعاد عن الواقع واغراق فى الأخذ بالتزاويق .

ولم يك هذا أمرا مستغربا لأن (المذهب الواقعى) كان سائدا فى أوروبا ، وشمـــل الأدب فى جميع ألوانه ، والفن فى مختلف أنواعه .

ولم يك هذا المذهب الواقعى إلا صدى من أصداء المزاج العام والحركة الفكرية الواعية وغير الواعية . بفعل التقدم الآلى فى الصناعات والمخترعات وبتأثير الحركة العلمية التى انتهت إلى اكتشاف جراثيم الجدرى والدفتريا والسل وغيرها من الأدواء ، وهى حركة قوامها (المجهر) و (معمل الإبحاث والتحليل) فكان أن خلد فى أذهان الناس بتأثير هذا ، أن الإنسان يستطيع أن يصل إلى جوهر الأشياء إذا أخضعها للتحليل والتجزئة ، وأن آله (الفوتوغرافيا) فى إمكانها أن تنقل الحياة الواقعية نقلا دقيقا يطابق الأصل فالفن والحالة هذه ، لا يكون فى أوج كماله إلا إذا نسخ الواقع ومائله .

ويروى تاريخ الإخراج المسرحى ، فى صدد هـذه النزعة الواقعية أعجب الحوادث ، فقد أخرج (أنطوان) زعيم هذه الحركة فى المسرح منظراً فى إحدى الروايات ، يمثل مجزراً للماشية ، فكان أن شاهد الجمهور عدداً من الماشية المذبوحة وقد سلخت جلودها ، وشـدت إلى المشاجب الحديدية ، والدم يقطر منها فوق أرض المسرح ، فصفق الجمهور إعجابا .

وأخرج زميله الروسى منظراً يمثل مقدم باخرة تشق عباب البحر فى يوم عاصف ، فإذا برشاش الماء يتناثر على الصفوف المتقدمة من أمكنة النظارة . وهكذا اصبحت قدرة المخرجين على محاكاة الواقع مقياساً لاتفوق والشهرة .

ولم يكن المخرجون فى هذا منحرفين عن الجادة ، لأنهم كانوا يصدرون عما يتفق ونظرتهم ونظرة الجمهور إلى الفن المسرحى من حيث أنه صورة شمسية من الواقع الملموس . وقد تناسوا أن المناظر التى يطالعونها فوق المسرح لا تأخذ من حقائق الأشياء غير مظاهرها ، بدليل أن ما يرونه ممثلا للجدران الصلبة ، والأعمدة ، وحوائط الباخرة ليس إلا أستار ملونة مشدودة إلى إطارات من الخشب ، ويكفى للدلالة على زيف معدنها أن تقع يد إحد الممثلين عليها فإذ هى تهتز وترتعش .

هذه النظرة إلى فنون المسرح أو بالأحرى هـذه (النزعة الواقعية) ، مابرحت تسود الأكثرية الغالبة من الجمهور . وقد جاءت الينا مع مجىء فن التمثيل باللسان الغربى ، وفى طيات الموجة الثقافية الغربية التى تكسرت على شواطىء وادي النيل فيما بعد أواسط القرن الماضى . وقد تأصلت لهذه النزعة فى مجتمعنا جذور أمتدت على مر الزمن ، فإذا الفن بين أيدينا لا يتعدى أن

يكون صوراً شمسية من الواقع فى أدق تفاصيله .

ولكن الزمن قد تطور فى أوروبا التى أخذنا فنون المسرح عنها ، فتغيرت قيم وأوضاع فى الأدب والفن ، فبليت (واقعية) الفن بعد أن اتضح قصورها عن أشباع الواعية الأوروبية التى أزدادت نضجاً على وقع التقدم العلمى فى نواحى الفلسفة وعلم النفس ، الذى أثبت أن المرئيات إنما هى مظاهر ودلائل تشير إلى جوهر الأشياء ولا تنفصل ، وتوحى ولا تفصح ، وتجمل ولا تحلل وأن الأخذ بالتركيب Synthèse أسوب من الأخذ بالتحليل العاجز المتطاول . وقامت نزعة جديدة فى الأدب والفنون تأخذ بالإيحاء والإشارة بدلا من نسخ الواقع وتفاصيله ، وبالتركيز بدلا من التحليل المفصح الذى يعنى بالتفاصيل ولا ينتهى إلى الجوهر . وقامت فى المسرح ، وذلك فى أوائل القرن الحاضر ، حركة تناهض (الواقعية) فى فنون التمثيل وترتكز على ما تقدمت الإشارة إليه ، سرعان ما قضت عليها إذ تركتها بين أيدى المتأخرين من متابعة قافلة التطور فى الأدب والفن . فإذا المناظر المسرحية للاجمال والإشارة فى التصوير ، وإذا الإضاءة للتركيز على المواطن المهمة فى الحركة المسرحية وليس لمجرد الإنارة ، وإذا كل ما يبدو فوق المسرح للإيحاء ، وإذا بالمسرح يصبح (تمويها للواقع) وليس (نقلا واقعيا) عنه ، وامتد تأثير الاتجاهات الفنية الحديثة إلى المرئى فوق المسرح فإذا بنا نطالع فوقه مذاهب (الإيحائية) و(التأثرية) و (التعبيرية) فى التصوير والرسم .

وقد زاد فى الأخذ بهذا ما فرضته السرعة فى الانتقال من تأثير على النظرة إلى المرئيات ، هذا التأثير الذى نسخ بدوره فعله على العقل الواعى وغير الواعى ، فغدا مقياس العمل فى كل نواحى الحياة ، (أتيان أكبر الأثر بأبسط الوسائل وفى أسرع وقت). وكان من أكبر الأسباب التى دفعت بالمسرح إلى أن يأخذ اتجاهاً يجافى الواقعية ، فى تسجيل المرئيات ، هو قصوره عن مجاراة (السينما) فى وسائل أحياء الواقع على الوجه الذى تراه العين المجردة .

من أجل هذا وعلى هدى ما تقدم ذكره فإننا نأخذ بهذا الاتجاه الجديد فى إخراج مسرحياتنا ، حتى تماشى روح العصر الذى نعيش فيه . الإيماءة تأخذ مكان الحركة الكاملة ، وجذع الشجرة ينبىء عن فروعها ويشير إلى أغصانها ، والعامود ذو الطراز المحدود ، أو الحنية أو العقد فى البناء ، يغنى عن إيراد بهو كامل الجدران قد دقت اليد فى إيراد تفاصيله وكذلك الحال فيما هو دون هذا ، فإن طعنة الخنجر أو ضربة السيف ، توحى بما يصاحبها .

وقد يصح أن فى اتباعى هذا المذهب أقدم غير ما يألفه السواد الأكبر من الجمهور ، ولكن من واجبى أن أبشر بالجديد الذى يقبله الجمهور الأوروبى ، وهو جمهور سبقنا فى مضمار فنون المسرح ، وعنه نأخذ فى فنية المسرح وحرفيته ، وهذا الجديد غير عسير استساغته ، لأنه يرتكز على الطبيعة بقدر ولا يجافيها كل المجافاة .

وأؤكد للأستاذ (ط) أن مداركة ما أخذه علينا من أن الدم لم يتفجر على أثر طعنة الخنجر ، من أيسر الأمور ، ويكفى أن نضع فى عب ممثلة دور الفتاة التى تطعن بالخنجر ، (تفاحة) مملوءة بسائل أحمر ، لا بالدم ، فسرعان ما تتفجر تحت ضغط اليد التى تهوى عليها ، فيغشى السائل الأحمر ثيابها ويسيل إلى الأرض ، بل وينطلق رشاشه إلى الجمهور الذى يأخذ مكانه فى الصفوف الأمامية .

ثم ماذا يكون قول الأستاذ (ط) إذا شاهد مرة فى إحدى المسرحيات منظراً يمثل معركة حربية بين صليل السيوف التى من الخشب ، وانفجار القنابل الزيفة التى تفرقع ولا تحدث أثرا ، بما ذا يحاسب المخرج إذا لم ير الدماء تسيل أنهاراً فوق المسرح ، والإشلاء تتطاير هناك وهناك ، ويضرب بعضها وجوه النظارة كما كان يجب أن يجرى فى الواقع ، وهل يصح أن يقول أن المخرج أهدر جانب الواقع ، وتورط فى الخطىء الفاضح .

أقول أن الخدع المسرحية التافهة التى تدخل فى نطاق ما ذكره الأستاذ الناقد أصبحت اليوم لا تؤثر فى الجمهور المثقف ، كما كانت تؤثر فى نفوس أجدادنا مخدوعين أو متناسين الحقيقة ، لأن النضج الذى نزل بالذهنية الحديثة من جراء التطور العلمى العام صار يميل إلى الأخذ بالايحاء حتى يفسح خيال المشاهد فيكمل التفاصيل ، على وجه قد يكون أروع من تفاصيل مفروضة عليه من سواه .

أقول أن فن المسرح فى مظاهره المادية الخاصة بالإخراج ليس الحياة بواقعيتها وفى دقائقها وتفاصيلها ، وإنما هو تمويه بهذا فى حدود المعقول ، الذى يبعث الإيحاء ويساعد على الرمز وينشط مخيلة النظارة على الإنسراح لاستخراج التفصيل من المجمل ، والكل من الجزء .

زكى طليمات